دور العمل الخيري

في تحقيق أهداف الدولة الإغاثية

ناظم محمد سلطان المسباح

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فقد طلب مني الإخوة الأفاضل في مركز ابن خلدون للدراسات الاستراتيجية أن أكتب صفحات مختصرات عن [دور العمل الخيري في تحقيق أهداف الدولة الإغاثية] ، ضمن مشروعهم البحثي بعنوان : (القطاع الثالث ودوره في تحقيق التنمية المستدامة) . حيث يعتبر بحثي هذا محورا من محاور هذا المشروع . وقد حاولت إبراز الجانب التأصيلي للعمل الخيري سواء القطاع الحكومي أو الخاص ، من حيث مفهومه كمصطلح مستعمل ومكانته في الإسلام ، وأهميته في الواقع العملي ، وأنواعه ، ثم ذكرت جوانب الإغاثة المنوطة بالدول تجاه الرعية وأهدافها ، وما هو دور العاملين في القطاع الخيري في تحقيقها .

وقد أعرضت عن ذكر الأرقام والإحصائيات طلبا للاختصار في صفحات البحث ، ولأن مشاهدتها في أرض الواقع والتقارير السنوية التي تصدرها المؤسسات الخيرية تغني عن تكرارها هنا . وقد انتظم البحث على أربعة مطالب وهي كالتالي :

- المطلب الأول: مفهوم العمل الخيري.
- المطلب الثاني: أهمية العمل الخيري
- المطلب الثالث: قطاعات العمل الخيري
- المطلب الرابع : واجب الدولة في إغاثة الرعية
- المطلب الخامس : أهداف الدولة الإغاثية وسبل تطبيقها من خلال منظمات العمل الخيري . وفيها خمسة مجالات

١. المجال الأول : جباية الأموال الخيرية وصرفها.
٢. المجال الثاني : الإغاثة في الجانب الاجتماعي
٣. المجال الثالث : الإغاثة في الجانب الطبي
٤. المجال الرابع : الإغاثة في الجانب العلمي
٥. المجال الخامس: الإغاثة في الجانب الخدمي

المطلب الأول

مفهوم العمل الخيري

لفظ (الخيري) ، نسبة إلى الخير، والخير في اللغة: ضد الشر. ومنه قوله تعالى:(وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير)(١) فهو لفظ يدل على مطلق الصلاح والنفع الدنيوي والأخروي ، وفي المعجم الوسيط : الخَيرُ الحَسَنُ لذاته ، ولما يحققه من لذَّةٍ ، أو نفع ، أو سعادة ، (٢) ، ويقال: رجل خيّر، على المبالغة ، لأنه يسعى إلى كل عمل فيه نفع الناس وصلاحهم ، ويطلق الخير ويراد به المال: ومنه قوله : (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ)(٣) وقوله : (وإنه لحب الخير لشديد)(٤) .

والخير في المعنى الاصطلاحي: لا يخرج في الغالب عن معناه اللغوي ، ويمكن أن نقول إن الخير هو كل ما ترغب به النفوس السليمة والفطر المستقيمة ، من الذوات والصفات . كالمال في الذوات والجود في الصفات.

وفعل الخير من حيث المبدأ واجب شرعي ، حيث أمر الشرع به ونهى عن ضده، قال سبحانه : (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) (٥) وقال : (وتعاونوا بالبر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) (٦) لكنه قد يختلف حكم فعله بحسب ما يدعو إليه فقد يكون واجبا عينيا وقد يكون واجبا كفائيا وقد يكون مستحبا عينيا وقد يكون مستحبا كفائيا لكنه من حيث الغالب مستحب، حيث جعله الله مجالاً للتنافس في مرضاته والفوز بجناته، لأننا إذا نظرنا في أوامر الشريعة وواجباتها ومستحباتها سنجد أن مساحة الواجب منها أصغر بكثير من

---

(١) الأنعام : ١٧
(٢) المعجم الوسيط ٢٩٤/١
(٣) البقرة : ١٨٠
(٤) العاديات : ٨
(٥) الحج : ٧٧
(٦) المائدة : ٢

مساحة المستحب وهذا من رحمة الله بعباده وحكمته في الشريعة حيث جعل لهم ميدانا واسعا يتنافسون فيه فمستقل ومستكثر . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. وبالجملة ففعل الخير يعتبر جزءا من عقيدة هذه الأمة وشعارا من شعاراتها الإسلامية ومنه ما هو فرض عين، وما هو فرض كفاية، وما هو واجب، وما هو مندوب.

والعمل الخيري بهذا المفهوم، قد يقوم به الشخص الواحد انطلاقا من مبدأ التكليف حيث فعل الخير عبادة تصح من الفرد وتصح من الجماعة لكنها في الفرد أكثر منها في الجماعة، وهي في الجماعة أبرك منها في الفرد.

فأما على مستوى الفرد: فقد قال تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) (١)،

وقال: (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) (٢) وقال : (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) (٣) وقال عليه الصلاة والسلام: (من دل على خير كان له مثل أجر فاعله) (٤) .

وقال عليه الصلاة والسلام: "مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ (٥)

ثم إن الإسلام دعا إلى العمل الجماعي في فعل الخير والتعاون عليه حيث تتضافر الجهود ويزيد الإنتاج ويقل الخطأ وتكثر البركة قال تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)(٦). قال السعدي رحمه الله: «الإعانة هي: الإتيان بكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، والامتناع عن كل خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره عليها من إخوانه المسلمين، بكل قول يبعث عليها، وبكل فعل كذلك. (٧)

---

(١) الزلزلة : ٧
(٢) البقرة : ١١٠
(٣) آل عمران : ٣٠
(٤) رواه مسلم (ح١٨٩٣)
(٥) رواه مسلم (ح ٢٧٠٢)
(٦) المائدة: ٢.
(٧) تيسير الكريم الرحمن ٢٣٨/٢ بتصرف يسير

وقد جاءت في هذا المعنى نصوص كثيرة منها قوله عز وجل: (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

وفي هذا المعنى يقول عز وجل (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) (١)، فكون بعضهم أولياء بعض يقتضي التناصح والتعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق والصبر عليه والحذر من كل ما يخالف هذه الولاية ويضعفها.

(١) التوبة (٧١)

المطلب الثاني

أهمية العمل الخيري

لقد اعتنت الشريعة الإسلامية بالعمل الخيري وأولته اهتماما بالغا وأمرت بتحصيل الخير والعمل لأجله والدعوة إليه، ودفع الشر والعمل على ضده والتحذير منه فقال تعالى: ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير﴾ (١) ، وعمل الخير ودفع الشر مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية التي جاءت بتحصيل ضروريات الإنسان الخمس والحفاظ عليها: وهي الدين والنفس والعقل والعرض والمال. لذلك جاءت النصوص الشرعية من الكتاب والسنة بالدعوة اليه والمسارعة فيه. وذلك في نصوص عديدة، مثل قول الله عز وجل : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (٢) ، ففيه الأمر بالصلاة وأنواع العبادة، وفعل الخير الذي يصل نفعه للغير، من صلة الرحم والصدقة ومكارم الأخلاق وغيرها. وقولِه جل جلاله في آية البقرة: "فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ"(٣) ، أي: بادروا بفعل الخيرات، ومن ذلك تقبل أوامر الله عز جل ، وتنفيذها. ومثله قوله سبحانه في آية المائدة: " فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ "(٤) ، أي: ابتدروا الأعمال الصالحة وسارعوا إليها.

وفعل الخير من صفات الأنبياء الذين امتدح الله فيهم هذه القيمة العظيمة فقال سبحانه: "فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ "(٥) ، وقال في موضع آخر: "وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ"(٦)

وقال في شأن المؤمنين الصالحين: (أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)(٧)

---

(١) آل عمران: ١٠٤
(٢) الحج :٧٧
(٣) البقرة :١٤٨
(٤) المائدة: ٤٨
(٥)الأنبياء:٩٠
(٦)الأنبياء:٧٣
(٧)المؤمنون:٦١

.

والعمل الخيري رافد من روافد تقوية أواصر الأخوة يبن المسلمين يلخص هذا المفهوم قوله عليه الصلاة والسلام: (المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) (١) .

إذاً فالعمل الخيري يعد من صميم هذا الدين، نشر الخير في الأرض من مقاصده الحسنة، ومن القربات التي يتقرب بها إلى الله تعالى والتي تطلب فيها مرضاته، وتشترى بها جنته.

(١)البخاري (ح ٤٦١) ومسلم (ح ٤٦٩٠)

المطلب الثالث

قطاعات العمل الخيري

يمكننا تقسيم القطاعات العاملة في المجال الإغاثي إلى قسمين :

القسم الأول : القطاع الخيري الحكومي: وهو ما تقوم به الدولة عبر مؤسساتها الحكومية الرسمية حيث الأمة مأمورة بفعل الخير ونشره، وولي الأمر هو الذي يتحمل مسؤولية تطبيق هذا الأمر وغرس هذا المبدأ في الأمة واقعا.

والمتأمل في أحكام الشريعة الإسلامية، سيجد أن كثيرا من أحكامها جاءت تصب في تغذية هذه القيمة العظيمة، قيمة نفع الناس وإغاثتهم. فالأمر بالزكاة والصدقة والكفارة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والترغيب في نفع الناس وإغاثتهم كل هذا مما جاءت به الشريعة ويصب في هذا القالب، وولي الأمر مكلف في بتطبيقه على الأمة واقعاً، لأن مهمة ولي الأمر كما قال الماوردي: حراسة الدين وسياسة الدنيا به [1] ، ومن واجبات ولي الأمر تجاه الرعية تفقد أحوالهم ونصر مظلومهم، وإغاثة ملهوفهم، وتعليم جاهلهم وغير ذلك من مصالح الإنسان التي يعجز عن تحصيلها بنفسه فإن الإمام مكلف في جلبها له.

ومن هنا نشأ العمل الخيري في الدولة ممثلا ببيت المال أو بيت الزكاة والصدقات والكفارات التي جعل الله مصرفها المحتاج من المسلمين.

القسم الثاني : القطاع الخيري الأهلي: ونقصد به ما يقوم به أفراد الأمه من الأعمال الخيرية، سواء كانوا أفرادا أم جماعات وجمعيات خيرية، وقيام الفرد المسلم بالأعمال الخيرية، هو في الحقيقة امتثال لأمر الله ورسوله بفعل الخير والتعاون عليه في نصوص كثيرة أوردناها في المطلب السابق.

---

(١) الأحكام السلطانية ص١٥.

وقد زخر هذا القطاع في العصر الحديث، حيث انتقل العمل الخيري الأهلي من الفردية والارتجالية إلى العمل المؤسسي المنظم، وتطورت أهداف العمل الخيري الأهلي من مجرد إغاثة ملهوف ومساعدة محتاج وبناء مسجد إلى أهداف تنموية شاملة نهضت بسببها كثير من البلدان النامية، حتى صار القطاع الخيري الأهلي يوازي بأعماله ما تقوم به الحكومات، بل فاق على كثير منها حتى أصبحت كثير من الدول تنفذ مشاريعها الخيرية والإغاثية بواسطة هذه الجمعيات. وتقلص دور القطاع الحكومي في الأعمال الخيرية نظراً لقوة القطاع الخاص وانتشاره وخبرته. لكن هذا التميز والانتشار للقطاع الخيري الأهلي شجع بعض الحكومات على التملص من الالتزام في قطاع الخدمات كبناء المدارس والمستشفيات وإصلاح الطرق والرعاية الاجتماعية والعلمية وغيرها من القطاعات الخدمية التي أصبح للعمل الخيري الأهلي فيها بصمات واضحة .

المطلب الرابع

واجب الدولة في إغاثة الرعية

لفظ الإغاثة، مشتق من مادة (غ و ث) التي تدل على الإعانة والنصرة، ويقال أغاثه إذا خلصه من الشدة والمحنة والحاجة، وعليه فكل أمر استوجب الإغاثة والإعانة فهو يدخل في هذا المفهوم الذي نتناوله بالبحث. (١)

وقيام الدولة ممثلة بولي الأمر ونوابه بإغاثة الأمة سواء أفرادا أو جماعات، هو حق مشروع عليهم للأمة، إذ إن من واجبات ولي الأمر تجاه رعيته أن يحوطهم بالنصح والرعاية فيعمل على كل ما يجلب المصلحة والنفع لهم، ويدرأ المفسدة والضرر عنهم.

قال الله تعالى: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (٢)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته والإمام راعي ومسؤول عن رعيته، والرجلُ راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته)) متفق عليه. (٣)

وعن أبي يعلى معقلِ بن يسارٍ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ: ((ما من عبدٍ يسترعيه الله رعيته، يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة)) رواه مسلم (٤) . وفي رواية للبخاري: ((فلم يحُطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة)) (٥) . وفي رواية لمسلم: ((ما من أمير يلي أمور المسلمين، ثم لا يجهد لهم،

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣٩٢/٣ ، معجم مقاييس اللغة ٤٠٠/٤
(٢) الشعراء:٢١٥.
(٣) صحيح البخاري (ح ٢٤٠٩) وصحيح مسلم (ح ١٨٢٩)
(٤) صحيح مسلم (ح١٤٢)
(٥) صحيح البخاري (ح٧١٥٠)

وينصح لهم، إلا لم يدخل معهم الجنة)). [١]

وقد دلَّت سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أن الولاية أمانة يجب أداؤها ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر -رضي الله عنه- في الإمارة: (إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدَّى الذي عليه فيها)) [٢]

وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من ولاَّه الله شيئًا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخَلَّتِهم وفقرِهم، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة) [٣]

وعَنْ تَمِيمٍ الداري؛ أَنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: " الدِّينُ النَّصِيحَةُ " قُلْنا: لِمَنْ؟ قالَ: " لِلهِ وَلِكِتابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِم " [٤].

قال القاضي عياض: والنصح لعامة المسلمين: إرشادهم لمصالحهم، ومعونتهم في أمر دينهم ودنياهم بالقول والعمل، وتنبيه غافلهم وتعليم جاهلهم، ورفد محتاجهم، وستر عوراتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع في الدين والدنيا إليهم. (٥)

ومن وجبات ولي الأمر تجاه الأمة: الحلم عليهم والرفق بهم وتفقد أحوالهم ورفع المشقة عنهم: لقوله - صلى الله عليه وسلم-: (اللهم من وَلِي من أمر أمتي شيئًا فشقَّ عليهم، فاشقُق عليه، ومن وَلِي من أمر أمتي شيئًا فرَفَق بهم، فارفق به) (٦) .

فلا تصلح أحوال الرعية بالعَسَف والشدة والقسوة، وقد صح عن الْحَسَن، أَنَّ عَائِذَ بْنَ عَمْرٍو، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- دَخَلَ عَلَى عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زِيَادٍ، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: "إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ"، فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ نُخَالَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: "وَهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ؟ إِنَّمَا كَانَتِ النُّخَالَةُ بَعْدَهُمْ، وَفِي غَيْرِهِمْ" (٧)

---

(١) صحيح مسلم (ح١٤٢)
(٢) صحيح مسلم ٠ (ح ١٨٢٥)
(٣) أخرجه أبو داود (ح٢٩٤٨) بسند صحيح .
(٤) صحيح مسلم (ح ٥٥)
(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٣٠٧/١
(٦) رواه مسلم (ح ١٨٨٢)
(٧) رواه مسلم (ح ١٨٣٠)

قال في النهاية الحطمة هو العنيف برعاية الإبل في السوق والإيراد والإصدار يلقى بعضها على بعض ويعسفها . وهذه العبارة (إن شر الرعاء الحطمة) ضربها النبي صلى الله عليه وسلم مثلا لوالي السوء الغليظ على الرعية ، ويقال أيضا حطم بلا هاء... وقيل: الحاطم من الحطم، وهو الكسر، وهو " من يظلم الرعية ولا يرحمهم في البلية. (١) وقيل المعنى قليلُ الرَّحمة، يعني: شرُّ الملوك من قلَّتْ رحمتُه وشفقتُه على الرعي (٢) ، قال الصنعاني : وهو لفظ ضربه الله مثلا لولاة السوء. (٣)

(١) النهاية ٤٠٢/١
(٢) المفاتيح شرح المصابيح للضرير الشيرازي ٤٠٠/٤
(٣) التنوير شرح الجامع الصغير للصنعاني ٢٦٠/٣

المطلب الخامس

الأهداف الإغاثية للدولة ودور العمل الخيري في تحقيقها.

للعمل الخيري والإغاثي أهداف تختلف باختلاف مجالات الحياة وأنواع احتياجات الأمة يمكن أن نلخصها فيما يلي:

الهدف الأول: جباية الأموال الخيرية وصرفها.

ونقصد بالأموال الخيرية هي تلك الأموال الشرعية الواجبة كالزكاة والنذور والكفارات والأوقاف المشروطة أو الأموال المستحبة كأموال الصدقات العامة والتبرعات والهبات والأوقاف المطلقة وغيرها من الأموال الظاهرة فإنه يجب على الإمام أن يبعث السعاة لأخذها من الرعية وصرفها في مصارفها الشرعية. وقد خاطب الله ولي الأمر بهذه المهمة فقال: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها..) (١) ولأن النبي صلى الله عليه وسلم فعله وفعله الخلفاء من بعده، وفيه حفظ لهذه العبادة العظيمة.

ففي الحديث المتفق عليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن كان من ضمن وصاياه المتعلقة بمعاملته لمن يقوم عليه: فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم. (٢).

وعلى الرعية دفع الزكاة للولاة أو نوابهم من سعاة الزكاة، وقد ذكر الماوردي خلاف الفقهاء في حكم دفعها إلى ولي الأمر إن كان عدلا أهلا هل على الوجوب أم على الاستحباب. إلى قولين: أحدهما: إنه محمول على الإيجاب، وليس لهم التفرد بإخراجها ولا تجزئهم إن أخرجوها.

والقول الثاني: إنه محمول على الاستحباب إظهارا للطاعة، وإن تفردوا بإخراجها

---

(١) التوبة (١٠٣)
(٢) رواه البخاري (ح١٤٩٦) ومسلم (ح ١٩)

أجزأتهم.. (١) وهو الصحيح لأنه لا يوجد نص يمنع دفع الزكاة إلى غير الإمام، ولو كان كذلك لتواردت النصوص والوقائع من عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعدم الورود مع وجود المقتضي يدل على عدم الاشتراط، وهو المعمول به منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليوم، فالقول بالاستحباب هو الصحيح إظهاراً للطاعة خاصة من ذوي الجاه والقدوة بين الناس.

ولا يخلو جابي الزكاة من ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يكون مفوضا من قبل الوالي بجمع الزكاة .

الحالة الثانية: ألا يكون مفوضا، لكنه لا يمنع من جبايتها لأهليته.

الحالة الثالثة: أن يمنعه ولي الأمر من جمعها.

ففي الحالتين الأولى والثانية، تجوز جباية الزكاة فيها، أما الثالثة فلا تجوز لمخالفة ولي الأمر في نهيه عنها.

وهنا ينبغي التنبيه على التفريق بين الإجزاء والجواز في حق من منعه ولي الأمر من الجباية، حيث تجزئ الزكاة إذا دفعت إليه وتبرأ بها الذمة، مع أن الجباية في حقه لا تجوز ويأثم عليها لمخالفته أمر الوالي، حيث طاعته في المعروف واجبة. وهي قاعدة لها نظائر في الشريعة الإسلامية حيث قد يصح العمل مع الإثم.

ولأن الشريعة إنما جاءت بقتال مانع الزكاة فقط، وليس قتال من أخرجها بنفسه أو دفعها لغير الحاكم. (٢)

والناظر اليوم إلى السعاة وجابيي الزكاة والصدقات، يجد أن أغلبهم ممن تطوع لها دون أمر أو تكليف من ولي الأمر، نعم يرخص له ولي الأمر أو يسكت عنه وفي السكوت رضا، وهو حال أكثر السعاة اليوم سواء كانوا أفراداً أم جمعيات خيرية ومؤسسات ومبرات خيرية، فقد حملت على عاتقها هذه الوظيفة جباية وحفظا وصرفا حتى صارت مأوى أفئدة الفقراء والمحتاجين الأقربين والأبعدين. بل ربما قاموا بما لم يستطع ولاة الأمر القيام به من حيث

---

(١) الأحكام السلطانية ص١٨٠ .

(٢) انظر الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء ص١١٥ .

تطوير وتحسين وسائل الجباية، والوصول إلى مستحقي الزكاة في أقاصي الدنيا فهم بهذا يقومون بدور كبير في تحقيق هذا الهدف، ويحققون الحكمة من فرض الزكاة بجبايتها وصرفها على الوجه الصحيح.

الهدف الثاني: الإغاثة في الجانب الاجتماعي:

ونقصد بالجانب الاجتماعي هو رعاية العنصر الضعيف في المجتمع كاليتيم والأرملة وكبار السن والمرضى وغيرهم من ذوي الحاجات والعاهات الذين يحتاجون إلى غوث وإعانة.

وقد أولت الشريعة الإسلامية حق هذه الفئة الضعيفة اهتماما بالغا وأوصت به وحرجت عليه كما روى الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اللهم إني أحرج حق الضعيفين اليتيم والمرأة) (١)

وفيه إشارة إلى وجوب اهتمام ولي الأمر بهذه الفئة الضعيفة من المجتمع ، وقوله صلى الله عليه وسلم (إني أحرج) من التحريج أو الإحراج أي: أضيق على الناس في تضييع حقهما وأشدد عليهم في ذلك ، والمقصود إشهاده تعالى في تبليغ ذلك الحكم إليهم، جاء في الزوائد ، المعنى: أحرج عن هذا الإثم بمعنى أن يضيع حقها واحذر من ذلك تحذيرا بليغا وازجر عنه زجرا أكيدا (٢) وقد بوب الإمام النووي في كتابه رياض الصالحين: [باب ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضَّعَفة والمساكين والمنكسرين والإحسان إليهم والشفقة عليهم والتواضع معهم وخفض الجناح لهم] . ثم ساق الأدلة من القرآن والسنة على وجوب رعاية هذه الصنف الضعيف من الناس. منها ما أخرجه البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين بالسبابة والوسطى وفرج بينهما). (٣)

---

(١) رواه أحمد (٩٦٦٦) وأخرجه ابن ماجه (٣٦٧٨) ، والنسائي في "الكبرى" (٩١٤٩) وهو مخرج في "السلسلة الصحيحة" برقم (١٠١٥) .
(٢) حاشية السندي على ابن ماجه ٣٠٠/١.
(٣) رواه البخاري كتاب الطلاق باب اللعان (٥٣٠٤)

وعن أبي هريرة، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار» متفق عليه (١)

ويكاد جل العمل الخيري اليوم سواء على مستوى القطاع الحكومي أو الخاص يتصدر رعاية هذه الفئة في المجتمع فنجد مثلا هنا في دولة الكويت على المستوى الرسمي الهيئة العامة لشئون القصر والتي أُنشئَت عام ١٩٣٨ ، حيث كان لهذا العمل منذ التأسيس إلى اليوم أثر كبير في الحفاظ على حقوق القاصرين الذين لا ولي لهم أو ناقصي الأهلية أو فاقديها، والقوامة عليهم والإشراف على تصرفات الأوصياء عليهم والإشراف على إدارة أموالهم وتنميتها وصرفها عليهم ، وإذا نظرنا أيضا على المستوى الرسمي إلى بيت الزكاة والأمانة العامة للأوقاف كمؤسستين رسميتين سنجد في سجلاتها عشرات الآلاف من الأسر المكفولة والمرعية تمام الرعاية داخل الكويت أو خارجها ، أما على المستوى الخاص فإن الناظر يشهد تسابقا عجيباً في رعاية الأيتام والأرامل والأسر المتعففة سواء على شكل كفالات أو معونات متقطعة ، وسواء كانت هذه المعونات نقدية أو عينية داخل أو خارج الكويت ، يلحظ الناظر تسابقا تنافسيا في بناء دور الأيتام وتربيتهم وتأهيلهم ، كل هذا يشكل ترجمة لوصية النبي صلى الله عليه وسلم في حق الضعفاء والمعوزين في المجتمع . رغبة في بلوغ مجاورة النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة.

الهدف الثالث: الإغاثة في الجانب الطبي.

تعتبر الرعاية الطبية للمرضى وزيارتهم ومداوتهم وتفقد أحوالهم وإغاثة لهفتهم، من الأعمال الجليلة التي حثت عليها الشريعة الإسلامية، بل جعلها الله من الحقوق والواجبات بين المسلمين فقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «حق المسلم على المسلم ست» قيل: ما هن يا رسول الله؟، قال: «إذا لقيته فسلم

(١) رواه البخاري في النفقات (٥٣٥٣) ومسلم في الزهد (٢٩٨٢)

عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده وإذا مات فاتبعه» (١)

وروى الإمام مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في خرفة الجنة، وفى رواية قيل: يا رسول الله، وما خرفة الجنة؟ قال: " جناها." (٢)

وفي حديث أبي هريرة: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: " من عاد مريضًا نادى مناد من السماء: طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا" . (٣)

ورعاية هذه الفئة من الناس، تعد من صميم مهام ولي الأمر الذي استرعاه الله رعيته يسوسهم ويصلح أحوالهم ويرفد محتاجهم ويعود مريضهم ويداوي مريضهم، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو ولي الأمر الأعلى في الدولة يعود المريض ويرقيه ويهديه ويحث على ذلك وقصه عيادته لليهودي مشهورة.

وكان عليه الصلاة والسلام يهتم بالإرشاد الصحي لأمته فأرشدهم إلى المحافظة والاهتمام بالصحة والطهارة والاستزادة من العلوم وحارب العادات السيئة مثل السحر والشعوذة، ودعا إلى الغذاء السليم والاعتدال فيه، وحارب المسكرات والمفترات ، وفيه إشارة إلى أن على الراعي أن ينصح لرعيته في هذا الجانب وأن إهماله وتضييعه يجر إلى الإثم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول (٤) .

وقد اضطلع العمل الخيري اليوم بهذه المهمة سواء بقطاعه الرسمي أو القطاع الخاص. أما على المستوى الرسمي فبناء المستشفيات الحكومية والمراكز الصحية ومرافقها التي ترعى صحة الرعية وتداوي مرضاهم، كل هذا من الرعاية التي أمر بها الإسلام وحث عليها. والتي تعتبر اليوم من مقومات الدول وأساسيات بنائها.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز (١٤٢٠) ومسلم في كتاب السلام (٢١٦٢)
(٢) رواه مسلم كتاب البر والصلة (٢٥٦٨)
(٣) رواه احمد (٣٨٠٨) والترمذي باب البر (٢٠٠٨) بإسناد حسنه الألباني بهذا اللفظ ، انظر صحيح الجامع (٢١٦٣)
(٤) رواه أبو داود (٤٩٩٢) . وإسناده حسن.

وعلى المستوى الرسمي تلعب منظمة الهلال الأحمر دورا كبيرا في هذا الجانب، حيث تجدها سباقة في كل كارثة أو جائحة تصيب الناس. أما على المستوى الأهلي ، فإن المؤسسات والجمعيات الخيرية لا تزال تبني المستشفيات والمراكز الصحية والجامعات والكليات الطبية وتقيم المخيمات الطبية ، والمستشفيات الميدانية ، في مواقع الحروب والكوارث ، وتقوم بكفالة كثير من المرضى بتوفير الأجهزة الطبية والعقاقير الطبية لهم بشكل دوري ، وقد اعتادت كل جمعية أو مؤسسة أن تنشر تقريرا عن أعمالهم السنوية والمتتبع لها يقف على أعمال جبارة يقوم بها هذا القطاع الحيوي الناجح خاصة في منطقة الخليج الذي من الله عليه بالمال والأمن والخيرات والخبرات في مجال العمل الخيري الذي انتشر في الأرض يخدم المسلمين حتى وصل أدغال أفريقيا ، وأطراف آسيا وأوروبا .

الهدف الرابع: الإغاثة في الجانب التعليمي.

لا يقل العلم أهمية عن الطعام والشراب والدواء، فالعلم نور والجهل ظلام، ولا تقوم أمة إلا بالعلم. فالعلم قرين الطعام والشراب، بل الأول يكون في الغالب سببا للثاني.

وقد جاء الإسلام بالعلم والدعوة إليه وفرض على هذه الأمة أن تتعلم وتعلم غيرها، فكان أول أمر في الإسلام هو قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق ...).

ومقصودنا بالعلم هو مطلق العلم الذي يتناول العلم الدنيوي والأخروي الشرعي. فالعلم الدنيوي تصلح به دنيا الناس ومعايشهم، والعلم الشرعي تصلح به آخرتهم. وكلاهما مأمور به في الشريعة الإسلامية.

وقد أخرج ابن ماجه في الحديث الصحيح، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " طلب العلم فريضة على كل مسلم. . . .) (١)

ونعني بالعلم هو ما لا يسع المسلم جهله من أمور دينه وما لا تقوم الحياة إلا به من أمور دنياه، وقد يكون طلب العلم فرض عين وقد يكون فرض كفاية وقد يكون مندوبا إليه وهكذا

(١) ابن ماجه كتاب السنة باب فضل العلم (٢٢٤)

كما قال القاضي عياض: كُلُّ عملٍ كان عليك فرضاً، فطلبُ علمه عليك فرض، وما لم يكن العمل بهِ عليك فرضاً، فليس طلبُ علمه عليك فرض. (١)

والأصل في الواجب الكفائي قوله تعالى: " وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون" (٢) قال القرطبي رحمه الله: " هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم. وقال رحمه الله أيضاً: طلب العلم فضيلة عظيمة ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل " (٣)

وبهذا تصبح القضية واجبًا دينيًّا، وقضيَّة شعبيَّة مفروضة على الجميع؛ إذ يجب أن يطلب الجميعُ العلمَ، ليصبحوا جميعًا متعلِّمين، لم يُستثنَ من ذلك رجل أو امرأة.

ويُنَزّل الوجوب على ولي الأمر في تعليم الرعية ما يصلح دينهم ودنياهم، فيصلح ما فسد فيها، ويقوم ما اعوج. فولي الأمر يملك من الصلاحيات والوسائل والمقومات ما لا يمتلكه الأفراد مهما بلغوا من الجاه والعلم، وتقصير ولي الأمر في تعليم رعيته ما يصلحهم مع القدرة على ذلك يجعله غاشا لرعيته غير ناصح لهم.

وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتطبيق العملي لهذا المنهج عندما وافق أن يُطلِق سراح أسرى غزوة بَدْر ممن كان يعرف القراءة والكتابة أن يعلم أولاد الأنصار، فكان هذا فكرًا حضاريًّا لم يكن معروفًا البتَّة في العالم في ذلك الوقت، ولا حتى بعد ذلك الوقت بقرونٍ.

فقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان ناس من الأسرى يوم بدرٍ لم يكن لهم فداءٌ، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فداءَهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابةَ....) (٤)

وثبت أيضا أنه عليه الصلاة والسلام أمر زيد بن ثابت بتعلم اللغة السريانية ليتولى أعمال الترجمة والرد على الرسائل، وروي أنه تعلم بأمر منه صلى الله عليه وسلم العبرية والفارسية

---

(١) انظر معالم السنن للخطابي ١٨٦/٤
(٢) التوبة : ١٢٢ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٦٦/٨ ، ٢٦٨ .
(٤) مسند أحمد (٢٢١٦) والبيهقي (١٢٢٤٩) . وذكر هذا الأثر في كثير من كتب السير .

والرومية وغيرها، فعنه رضي الله عنه قال: «أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم لـه كلمات من كتاب يهود، قال: إني والله ما آمن يهود على كتابي، قال فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته لـه، فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت لــه كتابهم» (١)

وفي المسند عن زيد بن ثابت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تحسن السريانية؟ إنها تأتيني كتب " قال: قلت: لا. قال: "فتعلمها " فتعلمتها في سبعة عشر يوما) (٢)

ولم تقتصر عنايته صلى الله عليه وسلم بتعليم هذه الفنون والعلوم للرجال فحسب، إنما اعتنى أيضا بتعليم النساء العلم والكتابة، فعن الشفاء بنت عبد الله، قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عند حفصة فقال لي: «ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة» (٣)

ولم يقتصر اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالحث على تعليم القراءة والكتابة، وإنما تعدى اهتمامه إلى تعليم الحِرَف والصناعات فعن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الله عز وجل يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله. وارموا، واركبوا، وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا. ليس من اللهو إلا ثلاث: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله، ورميه بقوسه ونبله، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه، فإنها نعمة تركها «، أو قال» كفرها " (٤)

---

(١) رواه الترمذي باب ما جاء في تعلم السريانية (٢٧١٥) بسند حسنه الألباني
(٢) مسند أحمد (٢١٥٨٧) والحديث أخرجه أبو داود كتاب العلم (٣٦٤٥) والترمذي في الاستئذان والآداب (٢٧١٥) بإسناد حسن انظر المشكاة للألباني (٤٦٥٩)
(٣) أخرجه أبو داود كتاب الطب (٣٨٨٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٨).
(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد (٢٥١٣) والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٧) ، والنسائي في كتاب الخير (٣٥٧٨) والحديث ضعفه الألباني لاضطراب في أحد رواته انظر ضعيف أبي داود (٣٠٢) وبعضهم حسنه بمجموع طرقه قال عنه الترمذي حديث حسن، انظر تحقيق الأرناؤوط على أبي داود ١٦٧/٤ وابن حجر في مقدمة المشكاة في تخريج المشكاة ٣٠/٤.

إن العمل على تعليم الناس ما يصلح دينهم ودنياهم لهو من أجل أعمال الخير الذي يقدمه الإنسان لبني جنسه، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير) (١) وهذه الخيرية تشمل المعلم المباشر أو من كان سببا في التعليم.

ولقد اضطلع العمل الخيري بهذه المهمة من وقت مبكر حيث أسست الكتاتيب وحلق القرآن وزواوي العلم، حيث يتعلم الناس ويرفع الجهل، والناظر في كثير من أنشطة المؤسسات الخيرية اليوم يرى ما يسر النفوس من تشييد المدارس والمراكز والمجمعات حتى وصل الأمر إلى تشييد الجامعات ومراكز البحث العلمي وإقامة المؤتمرات الدولية التي تعني بمناقشة نوازل المسائل الشرعية والعلمية، كل هذا يقوم بعد توفيق الله على سواعد الخيرين في هذا المجتمع.

وقد كان للعمل الخيري في كثير من بقاع الأرض دوراً كبيراً في تعليم الناس أمور دينهم وتصحيح عقائدهم وإرجاعهم إلى حياض الدين والالتزام به سواء على المستوى الفردي أو الجماعي. ومثل العمل الخيري رافدا أساسيا في دعم الصحوة الإسلامية وتراجع التيارات المناهضة للإسلام بعد ما كانت جاثمة على صدر الأمة عصور ما بعد الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية.

الهدف الخامس: الإغاثة في الجانب الخدمي.

ونعني بالجانب الخدمي ما يصلح به الناس حياتهم اليومية ويخدمهم في معاشهم، ويتميز هذا الجانب أنه لا يختص بفرد أو جماعة بل يشمل عموم الناس في موقع الخدمة.

ومن الأمثلة على هذا الجانب حفر الآبار وإنشاء المزارع وتشييد المصانع الخيرية وتمويل المشاريع الصغيرة والكبيرة التي توفر فرص العمل للعاطلين وتعود بالريع على الفقراء والمعوزين،

وبناء السدود ورصف الطرق، وبناء المساجد وتشييدها، وبناء بيوت السبيل، وسقيا الماء،

---

(١) راواه الترمذي باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٥) وابن ماجه باب ثواب معلم الناس الخير (٢٣٩) بسند صحيح .

وبناء بيوت الفقراء وإنشاء مخيمات اللاجئين وغير ذلك من جوانب العمل الخدمي الذي يوفر للناس حياة سعيدة وهانئة.

والشريعة الإسلامية لم تغفل عن هذا الجانب، عندما كونت أول مجتمع مدني إسلامي فقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم ببناء المسجد ليكون مصلى المسلمين، وحث الناس على شراء بئر معونة فاشتراه عثمان وأوقفه للمسلمين.

وتتابع بناء المساجد وحفر الآبار وإيقاف الضياع والبساتين وبيوت السبيل وغيرها إلى يومنا هذا. واعتبر الإسلام خدمة الناس من أجل الطاعات وأفضل القربات وكان يقول النبي صلى الله عليه وسلم: إِنَّ لِلَّهِ أَقْوَامًا اخْتَصَّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، وَيُقِرُّهَا فِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا عَنْهُمْ وَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ) (١)

عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إلى اللهِ؟، وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إلى اللهِ؟ فَقَالَ: " أَحَبُّ النَّاسِ إلى اللهِ، أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، يَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ يَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ يَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِي مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ - شَهْرًا (٢)"

وقد أصبحت اليوم مؤسسات العمل الخيري بشقيها الرسمي والخاص تمثل اليد اليمنى للدولة في تحقيق أهدافها الخدمية وشواهد الواقع كثيرة تغني مشاهدتها عن ذكرها هنا طلبا للاختصار.

---

(١) خرجه الطبراني (رقم ١٣٣٣٤) ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٢/٨): رواه الطبراني وضعفه ، وحسن حديثه ابن عدى. قال الألباني :(حسن لغيره) صحيح الترغيب والترهيب ٣٥٨/٢.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٧٨٧) انظر السلسلة الصحيحة (١٢٧).

الخاتمة

بعد هذا العرض الموجز لمكانة العمل الخيري في الإسلام وأهميته في حياة الناس وبناء الدول ، وعرض الجوانب الإغاثية المنوطة بولي الأمر تجاه الأمة ، والتي يحقق أهدافها من خلال مؤسسات العمل الخيري بشقيها الرسمي أو الخاص ، ندرك أهمية العمل الخيري في بناء الدولة ، وتوطيد العلاقة بين الراعي والرعية وبين الرعية والرعية ، والتي تعتبر مقصدا عظيما من مقاصد الشريعة الإسلامية وأساسا رصينا من أسس بناء الدول ، كما أنها تصب في تحقيق المقصد العام للإسلام وهي جلب المصلحة للناس ودرء المفسدة عنهم ، حيث الشريعة مصلحة كلها ، وحيث ما كانت المصلحة فثم شريعة الله .

أسأل الله للجميع التوفيق السداد في الأمر كله.

كتبه

د. ناظم سلطان المسباح

١٠/ رمضان /١٤٣٧ هـ

٢٠١٦/٦/١٥ م